ملخص لكتاب
«الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما»

أ.د. محمد صالح ناصر (جامعة الجزائر)

هذا الكتاب[1] ليس تأريخا لحياة الشيخ المصلح «إبراهيم بن عمر بيوض» بل هو عبارة عن انطباعات وتحليلات وتوضيحات لعدة جوانب مهمة من حياة هذا العالم العَلَم، وذلك بالاعتماد على مقالاته وكتاباته المختلفة، وهذا كله في إطار تاريخي حرج للغاية كانت فيه الجزائر ترزح تحت نير الاستدمار الغاشم، وهذا لا يمنع من التعريج على مسيرة حياة هذا العالم الجليل منذ النشأة إلى الممات حتى تكون قدوة ومنارة تهدي السائرين في ميدان البناء الفكري والاجتماعي والسياسي والحضاري عامة، كما قال الشاعر العربي قديما:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاحُ

و«العلماء ورثة الأنبياء» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا الكتاب يرصد لنا مسيرة الشيخ بيوض عبر عدة محطات:

1 - المحطة الأولى: وتشمل إطلالة الشيخ بنوره الوضاء، وإشراق هذه الشمس على الدنيا وذلك بولادته سنة 1899م في الحادي والعشرين من شهر أبريل، بوادي ميزاب في ولاية غرداية سلّمها الله.

أما العائلة فهي مغمورة إذ لم يكن فيها من عرف بالعلم والنباهة الفكرية فقد كان أبوه (عمر) تاجرا وفلاحا بسيطا، وأما أمه فكانت من عائلة الحكم سديدة الرأي حازمة قوية الشخصية.

---

1 - هذا المقال هو فصل من كتاب من أعلام قسنطينة سيصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف في إطار تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015.

حفظ القرآن الكريم ولم يبلغ الثالثة عشرة من عمره، ولنباهة فكره وتوقد ذكائه لفت أنظار شيخه (إبراهيم بن الحاج إبراهيم لبريكي) فاهتم به وقرّبه دون سائر زملائه وضمّه لجلسائه الخاصة ليزداد علما ووعيا سياسيا ووطنيا.

ودون العشرين كان شيخنا بيوض يلقي الدروس على زملائه الذين يكبرونه سنا وقدرا، فخلف شيخه في حلقة تدريسه سنة 1921.

2 - **المحطة الثانية:** في حلقة العزابة سنة 1922م، ولم يكن يؤهل لها إلا الكبار والشيوخ، ولا عجب، «فقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر من الكنوز» وحلقة العزابة هي أعلى هيئة دينية، فكان يقوم بالوعظ والارشاد والإفتاء في كل المسائل، فبهر الناس بفصاحته وعلمه الواسع، وقوله الحق في محاربة البدع والخرافات، فصار المسجد مدرسة عامة يؤمها المتعطشون إلى المعرفة، وكان سلاحه كلام الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3 - **المحطة الثالثة:** إنشاء «معهد الشباب»سنة (1925م) ثم «جمعية الحياة» سنة 1937م، ليعلم القرآن واللغة والفقه... وأصبح يسمى فيما بعد «معهد الحياة» وكان يرسل المتخرجين منه إلى الجامعات العالمية كالأزهر والزيتونة وغيرها.

4 - **المحطة الرابعة:** شيخ العزابة.

حيث ترقّى إلى مرتبة شيخ الحلقة، سنة 1939م إلى أن تبوأ أعلى رتبة في حلقة العزابة وهي رئاسة (مجلس عمي السعيد) إلى أن توفي إلى رحمة الله سنة 1981م.

5 - **المحطة الخامسة:** الاصلاح الاجتماعي.

كانت آثار الاستدمار التخريبية التجهيلية بادية للعيان، فقد أستهدفت الجزائر في لسانها وإيمانها وثوابتها، وكان الشيخ بيوض لا يهدأ له بال ولا تطمئن له نفس حيال ما يرى، فانبرى يعمل جاهدا لتوعية الناس، وإصلاح ذات البين

وبث الوعي الديني والوطني في نفوسهم، مما أحدث نهضة حضارية شاملة خاصة وقد تلاحقت أفكار المصلحين آنذاك وتضافرت جهودهم من أمثال: الشيخ أطفيش وشكيب أرسلان ومحمد عبده، والأفغاني وأبي اليقظان والإمام المصلح عبد الحميد بن باديس، إذ انضم الشيخ بيوض إلى «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» فعضوا نشطا فعّالا من أعضائها، وذلك سنة 1931م مما يتم عن نبذه التعصب الديني المذهبي، وكيف هو الامام الذي فسر القرآن الكريم على طريقة الإمام محمد عبده، وانبرى لشرح كتاب «فتح الباري» وختمه في مدة أربعة عشر عاما. (من 1931 إلى 1945م) في المسجد.

وكان قبل ذلك قد درّس «مسند الإمام الربيع بن حبيب» عمدة المذهب فكان ذلك فتحا جديدا في تنوير العقول وتحريرها من الأفكار المتحجرة الضيقة.

كما عرف رحمه الله بالجرأة والتجديد في فتاواه وفي المناهج التربوية الحديثة، وترك ما تجاوزه الزمن من مناهج وطرق تدريس لا تناسب حركية المجتمع وتطلعاته.

كما حارب العصبية القبلية العشائرية، فغرس شجرة المودة والمحبة بين مختلف القبائل، وجفف منابع الفرقة بينها، نشأت بذلك (وحدة حقيقية) تتنافس في أعمال البر والنشاط الاجتماعي: كرعاية الأيتام والأرامل، وإعانة الفقراء والمحتاجين، وتربية وتهذيب الشبيبة والطفولة وتحقق ما كان يتمناه في دروسه (المجتمع المسجدي) الذي يجعل من مبادئ الدين الاسلامي الحنيف دستوره ومناهجه في الحياة، دون الإلتفات إلى السلطة الاستدمارية الحاكمة.

6 - المحطة السادسة: الميدان السياسي.

استهله بالتمرد على قانون التجنيد الإجباري أثناء الحرب العالمية الأولى فرفض الخدمة العسكرية، والموت في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، فجنّد إجباريا ثم أخلي سبيله بعد مساعٍ شاقة.

ونظرا لنشاطه الديني والاجتماعي والسياسي المكثف تنبهت له السلطات الاستدمارية ووضعته تحت أعينها، ودونت إسمه في القائمة السوداء، ووصفته بـ(الشاب المشاغب) وهي عبارة مخففة عن مقصودهم (عدولدود) ليصبح أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها (العدو رقم واحد لفرنسا).

ولا عجب في ذلك، بل العجب هو أن ترضى عنك فرنسا وأنت تفضح مخططاتها وخبثها وتكشف للمجتمع قبح وجهه الحقيقي!.

ثم انتخب عضوا في (المجلس الجزائري سنة 1948م) نائبا عن منطقة ميزاب، وكان هذا الترشيح وهذه التزكية منطقيين، كيف لا وهو أول وأشهر شخصية في المنطقة بل وفي القطر الجزائري كله؟!

وكان هذا المنبر ميدان صراع، وساحة قتال ونضال، إذ استمات الشيخ في الدفاع عن حقوق الشعب في شتى المجالات، وسعى لإبطال القوانين والتشريعات التي لا تخدم مصالح المجتمع، فكان يحارب المستدمر في عقر داره (مجلس النواب)، مما ألّب عليه الدوائر الفرنسية، وأوصى لوسائل إعلامهم أن تنعته بـ(لينين بوادي ميزاب!!) وكانت الثورة الشيوعية حينها صانعة الحدث العالمي، ووصفتها أخرى بـ(هتلر وادي ميزاب!).

هذا وكان لذلك النشاط الدؤوب لشيخنا الفاضل تأثير بالغ وخطير على الكيان الاستدماري، فهرول إلى الزج به في الإقامة الجبرية قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية (1939-1945م).

وقد أدّى دورا بارزا في رفع الحكم العسكري عن مناطق الصحراء، وبذلك قوّض خطة المستدمر الرامية إلى فصل الصحراء عن الوطن الجزائري، وهو الذي كان بإمكانه لو أراد أن يصبح حاكما على منطقة الصحراء لنفوذه الكبير هناك، ولكنه آثر الانضواء تحت مظلة الوطن الموحد لكل الجزائريين.

7 - المحطة السابعة: نشاطه الثوري:

يكاد يكون كل مجاهد في منطقة وادي ميزاب من تلاميذ الشيخ بيوض رحمه الله، فهو الذي ألهب في نفوسهم النزعة الوطنية التحررية بما كان يبثه في أذهانهم من وعي سياسي في دروسه ونشاطه اليومي.

فساهم في جمع الأسلحة وتهريبها من كل المناطق، خاصة المنطقة الصحراوية، وكان ينظم اللقاءات السرية وفي بيته أحيانا، وأوعز إلى كل الدكاكين المنتشرة عبر ميزاب والقطر الجزائري أن تجمع مبالغ الاشتراكات العينية والنقدية لصالح الثورة.

كما التقى بأبرز الزعماء أمثال بن يوسف بن خدة وعبان رمضان لتنظيم جمع الأموال وغيرها، وفتح الدكاكين لتكون ملتقى آمنا للثوار في قلب العاصمة وله في ذلك كتاب أسماه «أعمالي في الثورة».

لما شعر المستدمر بدنو رحيله من الجزائر حاول استمالة الشيخ ليؤيد قرار فصل الصحراء عن الشمال، وراوده بكل الاغراءات والحيل، ولكن القرآن الذي يحمله في قلبه وينشره في شعبه أبى إلا أن يقف وقفة شامخة ويعلنها مدوية: «لا لفصل الصحراء عن الجزائر»!! ممّا أثار حفيظة المستدمر فقام بتفجير العديد من محلات الميزابيين في الجزائر كلها بواسطة القنابل وتقتيل العديد منهم بدون ذنب.

كان الشيخ ضمن (الهيئة التنفيذية المؤقتة) في الفترة الانتقالية ما بين وقف إطلاق النار مارس 1962 إلى ما بعد الاستقلال، واستلم الملف الثقافي، إلى أن استلم منه المهام وزير الثقافة في الحكومة الجديدة أكتوبر 1962م.

8 - المحطة الثامنة: الشيخ بيوض مفسّرا للقرآن.

تعود بدايات الشيخ بيوض في تفسير القرآن الكريم إلى سنة 1921م وهو

في العشرين من عمره، فاعتمد على تفسير الامام البيضاوي وهو مختصر، ثم عكف على تدريس تفسير «جزء عمّ» للشيخ عبده وكان رائد المدرسة الإصلاحية الحديثة، ولم تكن هذه الدروس متسلسلة ومتصلة لأنه كان يقطعها بأشغاله الدعوية الاجتماعية الإصلاحية المتعددة.

ولكن منذ سنة 1935م نجد الشيخ قد عزم على التفسير المنهجي الكامل للقرآن الكريم في دروس مسجدية متسلسلة بلا انقطاع إلا لدواع طارئة فاستفتح بالفاتحة ثم سورة البقرة وهكذا إلى آخر سورة من القرآن الكريم وذلك بمسجد القرارة بولاية غرداية.

يحضر مجلسه أصناف الناس من أساتذة وطلاب وعامة الناس، وحتى الأميين والأطفال والنساء، بين صلاة الظهر والعصر باللغة العربية الفصحى وأحيانا يدعم كلامه باللهجة الميزابية الأمازيغية لتعم بها الفائدة.

وأتم الله نعمته وفتوحاته النورانية على الشيخ بيوض بإتمام وختم تفسير القرآن الكريم في دروس مسجدية وذلك عام 1980، وأقيم بهذه المناسبة الطيبة حفل تكريمي بمدينة القرارة، وبعدها بسبعة أشهر التحقت وارتقت روح الشيخ الطيبة إلى باريها وذلك في اليوم الرابع عشر من يناير 1981م عن عمر ناهز ثلاثا وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

هذا ويعتبر تفسيره إلى غاية سورة الإسراء مفقودا بسبب عدم تسجيله بآلات التسجيل التي لم تكن معروفة يومها، ولكن منذ 1961 سجلت دروسه ثم أفرغت في شكل كتب على يد تلميذه النجيب (عيسى بن محمد الشيخ بلحاج) قام بهذا العمل المضني منفردا لمدة أربعة عشر عاما.

9 - المحطة التاسعة: الشيخ بيوض أديبا.

لعل الجانب العلمي الديني الاصلاحي قد غطّى نوعا ما جانبا مهما من

شخصية هذا العالم الجليل ألا وهو «الشيخ الأديب» ولكن من البديهي أن ندرك أنه لابد للعالم الديني أن يلم بل ويشارك في الإبداع الأدبي فالآلة متوفرة وهي اللغة والنحو والصرف والباع الواسع في المعجم العربي.

فقد كان ذواقا للشعر والنثر الرفيع، ذا قلم سيّال وبديهة حاضرة حافظا للشواهد الضرورية من الشعر والنثر والحكم فقد كان في تفسيره يعرج على الأبيات الشعرية التي تساعد على توضيح معنى الآية موضوع البحث، فيأتي في شرحها بالعجائب البلاغية، وذلك لاستكناه أوجه بلاغة القرآن الكريم، الذي عجزت الجن والإنس عن أن تأتي بسورة واحدة من مثله، لأنه من كلام رب العالمين الذي لا مثيل له، وهو خالق الألسنة، ومفتق العقول النيرة.

يقول الشيخ عن نفسه: «... أوليت عنايتي لعلوم البلاغة، ودرست (دلائل الإعجاز).. و(الأمالي) لأبي علي القالي و(البيان والتبيين) للجاحظ.. ودرست (النظرات للمنفلوطي).. ».

وهذه الكتب التي ذكرها الشيخ تعتبر من أمهات كتب الأدب العربي على مرّ العصور، وكان (معهد الحياة) يدرّس أهم الكتب الأدبية من مثل: (العقد الفريدة) لابن عبد ربه، و(الأمالي) للقالي، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، و(الأغاني) للأصبهاني، إلى جانب كتب النحو والصرف والبلاغة المختلفة، وهذا كله بتوجيه وإقرار من الشيخ بيوض رحمه الله تعالى.

وكان رحمه الله يشجع المسرح ويسميه (التمثيل) وذلك لما له من أهمية تربوية تثقيفية نوعية لا تخفى.

10 - المحطة العاشرة: الشيخ بيوض المفترى عليه.

حتى لا نطيل، فقد أتهم الشيخ بيوض بتهمة خطيرة ألا وهي «الخيانة» ولابد

أن ندرك أن هذه التهمة لا تصدر إلا عن صنفين من الناس: الصنف الأول الناس المغلّطين الذين لم يعرفوا الشيخ عن كثب، وبلغتهم أقوال مغرضة لم يتبينوا صحيحها من كذبها، والصنف الثاني: هم الخونة الحقيقيون، كما يقول المثل العربي القديم: «رمتني بدائها واسلت» و«كل إناء بما فيه ينضح» فالإناء المليء بالخيانة هو الذي ينضح بالخيانة وهكذا، وكيف يمكن لعاقل له مسكة من العقل وتفكير ونزاهة أن يحاول تغطية الشمس بكفه!!؟ فنضال الشيخ الفكري والاصلاحي والتربوي، ونشاطه الدؤوب في الميدان الاجتماعي والسياسي وغيره لا ينكره إلا جاحد معاند.

فقد كان الشيخ رحمه الله «العدو رقم واحد لفرنسا» كما سبق ذكره وكان تلامذته وقود الثورة المباركة، وكان بيته موئلا للقادة الكبار، وساهم -كما سبق- في جمع المال وتنسيق الاتصالات، ونقل السلاح من الصحراء إلى الجبال المختلفة.

ويكفيه شرفا ووفاءً وإخلاصا أنه رفض رفضا قاطعا أن يقبل بفصل الصحراء عن الشمال الجزائري، وسعى بكل ما أوتي من قوة ونفوذ للحفاظ على الوحدة الترابية والوطنية للدولة الجزائرية.

وقد ألّف كتابا سماه: «أعمال في الثورة» بالصحراء والتل، كتبه الشيخ سنة 1964 بعد مضايقات بعض المسؤولين المحليين من منظمة المجاهدين ولا نقول الكل، وهذا ليس من باب التباهي بما علم، بل لردّ التهمة عن نفسه وإحقاقا للحق ودحضا للباطل.

أما تهمة الخيانة فقد كان تشبثهم -أي أعداؤه- بأنه كان في المجلس النيابي الجزائري تحت الاستعمار، ثم تهمة تأييده فصل الصحراء عن الشمال!

ويكفي للردّ على التهمتين شهادة الرئيس بن خدة وعبّان رمضان وقد عملا معه، وشهادة بن طوبال وزير الداخلية للحكومة المؤقتة الجزائرية الذي برأه من هذه التهمة الأضحوكة، ووصم متهميه أنفسهم بها عوضا عنه، وفي الكتاب أدلة كثيرة تبرئ الشيخ من هذه التهمة وأخيرا جعل الله مثوى الشيخ في جنان الخلد، وأبدل الجزائر الكثير من أمثاله، لتظل الجزائر تتسنم أرقى وأعلى المراتب في كل ميدان.